معالجات قصصيّة

الياس الماس محمّد

● تمثال

معالجة رقم ١:

توقّف القصفُ، ترك خوذتَه جانباً، علّق قناعَ الوقاية، لمَّ كومة طينٍ أخرى نقعها بالماء، أخذت أصابعه المتغضّنة تعجن وتقطع الطّين، شكّل قطعة طين على هيئة امرأة، حرص أن تكون رقبتها طويلة بعض الشيء وصدرها نافراً، وبعد أن أتمّ صنعها، وضعها فوق فوهة الرمي، وعند هبوط الظّلام استرخى جانباً يتطلّع إلى التمثال الطّيني، إلى ذات الرقبة الطّويلة.

نزلت المرأة، استلقت إلى جانبه، خرجا للنزهة، وعند نهاية الساتر الترابي، استقرّت قذيفة مفاجئة.

عند الفجر، وجدوا قطعة طين في هيئة امرأة طويلة الرقبة غارقة في الدّم..

معالجة رقم ٢:

أخذت أصابعه المتغضّنة تعجن وتقطع في الطّين. قطعة طين على هيئة امرأة، حرص أن تكون رقبتها طويلة بعض الشيء وصدرها نافراً، وها هي قطعة الطّين تصير امرأة أمامه مثل تلك الأوراق والصّور الّتي يقصّها من المجلّات ويلصقها على زوايا الموضع، خاصّة تلك الزاوية الّتي تقع قبالة مخدعه حين ينام، تصير امرأة ذات رقبة طويلة، ترقص أمامه، تناديه أن يقترب منها، تشير له بإصبعها، يفرك عينيه مذهولاً، يفركهما مرّة ثانية، ينهض، يقترب منها، يلامسها، يضحك معها، يشمّها، لا يجدها سوى قطعة طين على شكل امرأة ذات رقبة طويلة وصدر نافر.

معالجة رقم ٣:

وها هي قطعة الطّين قد صارت امرأة ذات رقبة طويلة، كما كان يتمنّى ويشتهي، دسّ أصابعه في شقّ السّروال، تتبلّل الأصابع.

تستقرّ شظايا قذيفة، هناك بين الأصابع، ثمّة نار ساخنة تحجّر قطعةَ الطّين الّتي صارت امرأة ذات رقبة طويلة كما كان يتمنى ويشتهي..

معالجة رقم ٤:

حينما سقط الجندي ممزّقاً بشظايا القذيفة، اقتربت منه المرأة ذات الرقبة الطّويلة والصدر النافر، تطلّعت إلى الجثّة الممزّقة، لملمت أجزاءها، مسحت بقع الدّم، قبّلته، فتح عينيه، ابتسم، ابتسمت المرأةُ ذات الرقبة الطّويلة والصدر النّافر، نهض متّكئاً عليها.. التصقا تماماً، تطلّعا إلى القمر، إلى ضوء القمر، لحظتها طار الاثنان: الجندي والمرأة ذات الرقبة الطّويلة، نحو القمر...

● زهرة عبّاد الشمس

معالجة رقم ١:

بعد لحظات تأتي بوجه أبيض كضوء القمر وشامةٍ في جبينها المرمريّ تقترب منه ثمّ تبتعد.

قرّر أن يلمسها هذه اللّيلة، أو على الأقلّ أن يقول لها: أحبّك، بعد لحظات تظهر هناك عند المعبر الوسطي، هيّأ كلّ شيء، رشّ شيئاً من العطر على وجهه، غسل أسنانه جيّداً، نظّف بندقيّته بالزيت، بعد لحظات تأتي بوجه أبيض وشامة سوداء، منذ أيّام كثيرة يفكّر في كيفيّة لقائها، كيف يتكلّم معها؟ بماذا يحدّثها؟ منذ أيّام وهو يبحث عن الكلمات المناسبة. تساؤلات عديدة، هل يتحدّث عن الحرب؟ لا... عن حياة السّاتر، والمواضع، عن الموت الّذي يأتي بأيّة لحظة؟ لا.. ستأتي بعد لحظات، تخرج من الظلمة، ولاسيّما في اللّيالي الطّويلة، لابدّ وأن تأتي، ترمقه بنظرة وابتسامة، لكنّه يتردّد في الاقتراب منها، وبخاصّة حين تظهر من منطقة متعرّضة دوماً للقذائف، تتعرّض في أيّة لحظة إلى قذيفة مدفع أو ضربة جوّيّة، لذا كان محالاً الاقتراب من تلك الأمتار المربّعة، الاقتراب ممنوع من تلك المساحة، كثيراً ما تحدّثوا عن تلك المرأة، عن مكان ظهورها، فتطوف عليهم، ولاسيّما في اللّيالي المقمرة المضيئة بعض الشيء

تطوف عليهم واحداً واحداً، لم يجرؤ أيّ منهم على التحدّث معها أو الاقتراب منها. كانوا يتمنّون ملامستها أو محادثتها.

في هذه الليلة المضيئة، قرّر أن يحدّثها، يلامسها، يهديها زهرة عبّاد الشمس الّتي زرعها مؤخّراً قبالة الموضع، بعد لحظات تأتي بوجه أبيض وشامة في جبينها المرمري، لابدّ أن تحضر، كانوا متلهّفين لرؤيتها، لكنّهم رحلوا، موتى، أو غادروا المواضع على هيئة نصف أو ربع إنسان، الواحد بعد الآخر. لم يبقَ في تلك الأمتار المربّعة إلاّ جندي واحد، هو نفسه، نعم نفسه، ترك بندقيّته وخوذته وملابسه الكاكيّة، تعرّى من كلّ شيء. عارٍ في تلك الأمتار المربّعة الحالكة الظّلام. بعد لحظات تأتي بوجه أبيض وشامة في جبينها المرمري. وقف هناك عارياً. تتدلّى بين أصابعه زهرة عبّاد الشمس، ضوء أبيض يظهر من وسط تلك الأمتار المربّعة، يقترب من الضّوء الأبيض وزهرة عبّاد الشمس لمّا تزل تتدلّى بين أصابعه.

معالجة رقم ٢ :

التقط أكبر زهرة لعبّاد الشمس ورشّ شيئاً من العطر على ملابسه ووجهه، بعد قليل ستأتي بوجه أبيض وشامة وابتسامة، التقط قلادة بسيطة صنعها بنفسه، اختار أجمل الكلمات، أفضل الممرّات وأقلّها خطورة. وضع بندقيّته وخوذته وقناع الوقاية جانباً، حفظ كلمات قصيدة غزليّة نشرت مؤخّراً في صحيفة يوميّة قديمة. لحظات وتأتي حاملة معها ينبوع سنوات الماء والحبّ، قرّر أن يحدّثها. يلامسها، فهي منذ فترة تزوره، تمرّ في المعبر الأوسط عند التقاء الساترين، وتقف قبالته، تبتسم، تشير، تغمز له، لكنّه يتردّد في محادثتها. الأوامر تنصّ على ذلك، هذه المرّة قرّر أن يحدّثها، اختار أجمل الكلمات، كلمات للحبّ، واختار أكبر زهرة لعبّاد الشمس، ثمّة ضوء أبيض يشعّ هناك عند طرف السّاتر، اقترب من الضّوء، وزهرة عبّاد الشمس لمّا تزل تتدلّى بين أصابعه، اختفى الضّوء فجأة، لم يجد سوى جثّة جندي مقطّع الأوصال وامرأة تحمل زهرة عبّاد الشمس تنسلّ عبر السّواتر المظلمة...

● السّمك

معالجة رقم ١ :

بالأمس اخترقت شظيّة بحجم زرّ القميص جدارَ رأسه من الجهة اليمنى، نهض من مكانه المغطّى بالدّم المتخثّر، رأى سمكات صغيرات تنهش جسده، ابتسم:

- سمكاتٍ صغيرات، على أيّة حال، كانت جثّتي وليمة دسمة.

خطا خطوات نحو موضعه، ضحك ضحكة عالية وأخذ يردّد أغنية طالما ردّدها في فترات الحراسة واليقظة والحذر، اشتهى لو حضر أولاده، زوجته، لكن لا أحد، سوى العواء الغريب الّذي يمزّق سكون هذا اللّيل الأسود. بحث عن أصدقائه في السريّة، عن رسائلهم الّتي كتبت معظمها لحسن حظّه وعن حكاياتهم في الحجابات والكمائن والطّوّافات. لم يجد أيّ شيء، أيّ أثر، سوى أطراف ممزّقة وأبدان محترقة، حمل بندقيّته واتّجه صوبَ فوهة مدفع محطّم. ترك بندقيّته جانباً، حملها مرّة ثانية، تركها، ضحك ضحكة عالية. لم يجد أيّ شيء، لذا رجع إلى ضفّة الهور. استلقى بين السمكات الصغيرات فنهشت جسده. في حين أخذ يردّد أغنية طالما ردّدها في فترات الحلم والحبّ والحزن وأثناء البحث عن العصافير.

معالجة رقم ٢ :

بالأمس اخترقت شظيّة بحجم زرّ القميص جدار رأسه من الجهة اليمنى، خطا خطوات نحو موضعه، وأخذ يردّد مع نفسه أغنية طالما ردّدها في فترات الحراسة واليقظة والحذر، اشتهى لو حضر أولاده، زوجته، لكن لا أحد، سوى العواء الغريب الّذي يمزّق سكون هذا اللّيل الأسود، بحث عن القمر، فلم يجده، بحث عن عصافير كان قد رسمها على جدران موضعه فلم يجدها، بحث عن الرسائل الّتي يكتبها لأصدقائه في السريّة لحسن حظّه، بحث عن المزهريات الّتي يصنعها من علب القنابل والقذائف. لم يجد أي شيء، أيّ أثر.

حمل بندقيّته واتّجه صوب فوهة مدفع محطّم، ترك بندقيّته جانباً، تطلّع من خلال فوهة المدفع، لم يجد سوى عصافير كان قد رسمها على جدران موضعه، عصافير مخنوقة، ميتة.

ضحك ضحكة عالية، ثم رجع إلى مكانه واستلقى بين السمكات الصغيرات. فنهشت جسده. في حين أخذ يردّد أغنية طالما ردّدها في فترات الحلم والحبّ والحزن وأثناء البحث عن العصافير.

معالجة رقم ٣ (متفائلة جدّاً):

وجاءت المرأة (امرأة سبق أن رسمها على جدران موضعه) جلست قبالته خائفة، تشير إلى البندقيّة، أعطاها البندقية، فصارت الأنبوبة واللوالب المثبتة عليها سمكة ملوّنة جميلة ترتعش بين أصابعها. نزل الثلاثة إلى الماء، وطفت فقاعات ملوّنة على السّطح.

● زوجة

معالجة رقم ١ :

تدخل الغرفة، تلك الغرفة، الّتي كانت لها بمثابة القلب وحجارتُها شرايين الدّم وأوردتها، كثيراً ما كانت تحرص على نظافتها وترتيب أشيائها، جمعت بقايا زوجها الرّاحل، كتبَه، مسوّدات قصصه، فرشاةَ رسومه، ألوانَه، مخطوطاته، ملابسَه، علبةَ أقلامه، غداً يدخل ابنهما العامَ الثامن عشر، تتذكّر ليلةَ العرس والزّفّةَ والأهازيج، تتجوّل بين حاجياته، تتطلّع إلى صورة مؤطّرة جميلة لهما، هي بثياب الزّفاف، جميلة جدّاً، حرصت على أن تكون أجمل من الصّورة، كان ذلك قبل تسعة عشر عاماً، لبست ثوب الزّفاف، وضعت الإكليل، مالت بالإكليل نحو اليسار كما كان يتمنّى. وضعت شيئاً من العطر المفضّل لديه، لمّا تزل تلك القنّينة رغم مرور تلك السنوات العجاف، وها هو ينزل من الصّورة باسماً وفاتحاً ذراعيه، يتلمّس أصابعها. يتطلّع إلى عينيها الهادئتين الواسعتين، يمسح دمعةً ساخنة، يحتضنها، يخرجان من نافذة الغرفة...

معالجة رقم ٢ :

تدخل الغرفة بين فترة وأخرى، نقلت أشياءه إلى غرفة تقع في الطّابق العلوي، كتبه، مسوّدات قصصه، آخر قصّة نشرها، فرشاة رسومه. ألوانه، ملابسه، مخطوطات قصصه، تتذكّر جيّداً أنّها وضعت أوراقه في الرفّ الثّالث من المكتبة، وفرشاة الرّسم والألوان في صندوقٍ خشبيٍّ رماديّ اللّون، لكنّها لاحظت الآن انتقال هذه الأشياء إلى غير أمكنتها السّابقة.

لابدّ أنّها اكتشفا حقيقة هذه الغرفة، أبقتها مغلقة طوال تسعة عشر عاماً. وحده هو من يدخل، لكنّها اليوم يلحّان في معرفة سرّ هذه الغرفة المغلقة منذ فترة طويلة، وفي كلّ مرّة تقنع ولديها:

ـ حينما تكبران تعرفان كلّ شيء.

وفي اليوم التالي اكتشفت اختفاء الألوان وفرشاة الرّسم، بحثت في أرجاء الغرفة فلم تعثر عليها، نزلت من الطّابق العلوي، توجّهت إلى الحديقة، كانت الفرشاة تنتقل بهدوء في فراغات لوحة وقف قبالتها شاب.

عادت إلى الغرفة تعيد ترتيب الأشياء القديمة.

ملاحظة: ربّما كان عنوان «الأشياء القديمة» أكثر توازناً مع بناء القصّة.

● معالجات أخرى قد تحتاج إلى إعادة بناء..

عبر كوّة بين أكياس الرّمل أو جدار الرّمل، كما كان يحلو له أن يسمّي ذلك الجدارَ، كان يتطلّع إلى قطيع من الكلاب. يرفع مقدّمة خوذته قليلاً. كلب أسود يشمّ مؤخّرة كلبة بيضاء، يرتعش لسانه الطّويل المستدقّ خلف الكلبة، ينزع خوذته، يتلمّس بندقيّته، فوهة بندقيّته، تمرّ الأصابع من الأعلى إلى الأسفل حيث تستقرّ فوق الحاضن الخشبي الأملس. يقفز الكلب على مؤخّرة الكلبة البيضاء، يهتزّ فوقها، تمرّ الأصابع من الأسفل إلى الأعلى. يرتعش الكلب.

قذيفة تستقرّ في وسط قطيع الكلاب، يتطاير الدخان الأسود، تنتشر رائحة البارود، كلاب محترقة، ممزّقة، يعضّ شفتيه، لمّا يزل الكلب لحظتها يرتعش على مؤخّرة الكلبة البيضاء.

«صديق القمر الوفي».. بهذا اللّقب عُرف في السريّة وفي السّاتر الأمامي يكتب الشّعر للقمر الأبيض المنير، يتغزّل بضوء القمر، يصف حبيبته بأنّ لها وجهاً كوجه القمر، يراقب طلوع القمر لحظة لحظة، فهو يعرف متى يطلّ القمر ومتى يغيب، يؤكّد للجميع أنّه يعرف لغة القمر، إذ للقمر لغة خاصّة، وعندما يكلّف بمهمّة في خلفيّات وحدته، يسرع إلى السّاتر الأمامي قبل طلوع القمر، ويذكر أنّ القمر يكره القذائف والدّمار المنتشر في كلّ جزء فيغيب عند اشتداد المعارك فالقمر يكره رؤية أصدقائه المنتشرين في السّواتر والمعابر والمواضع، أصدقاء القمر يخفون بنادقهم خوفاً من أن يحزن القمر...

وفي ليلة غريبة، مظلمة قاتمة، كان القمر يسير حزيناً في السّاتر، يبحث في المواضع، مثقوباً بثلاثة ثقوب سوداء.

يومها عرف أفراد السريّة أنّ صديق القمر الوفي سقط شهيداً.

البصرة